التفكيكية منهج ألسني نقدي

أ.أمال كعواش
جامعة الأمير عبد القادر/قسنطينة

مقدمة

إن خارطة الفكر في القرن العشرين على مستوى اللغة والفلسفة واسعة شاملة لا يمكن الإلمام بها، لكنها متداخلة بصورة لم يسبق لها مثيل، سواء مع المنهج البنيوي أو السيميائي أو ما جاء من بعدها من مناهج، فهي جميعا مناهج تحتفي بالنص من حيث هو كتلة من العلاقات، وكان التركيز فيها منصبا على العلاقات الداخلية للوحدات والمفردات والمكونات، وفي ضوء النظر إلى هذه العلاقات الداخلية يتحول النص إلى شبكة من الدلالات والإيحاءات. إلا أنه وبعد مدة من الزمن ارتأى لبعض النقاد ممن كان يحفوا بهذه المناهج، أن مثل هذه المناهج النصّانية قد بالغت في النظر إلى النص من حيث هو داخل ومن ثمة انتقدوا مثل هذه المبالغات النقدية واعتبروا البنيوية خاصة وما أعقبها من مناهج لا تفي بالغرض المقصود في إنتاج الدلالة.

الإرهاصات الأولى للتفكيكية

لقد شهدت الساحة النقدية الفرنسية مع منتصف ستينات القرن الماضي– أي في عز الرواج البنيوي – حركة نقدية جديدة اتسمت بالثورة والتمرد على كل ما هو مألوف من تقاليد فكرية سابقة، وقد تمثلت هذه الحركة في مشروع قراءة جديدة تنظر للنص أي نص كان بوصفه كتلة صماء، لا بد من تفجيرها من الداخل من أجل الكشف عن جوهرها، قراءة مؤجلة يستطيع القارئ بموجبها شحن اللغة بما لا نهاية من المعاني والدلالات، قراءة حفرية تعمل على النبش في الخطابات بهدف خلخلتها، إنها (التفكيكية) التي شغلت بال الناقد الفرنسي "جاك دريدا" Jacques Derrida، الذي يعتبر من المؤسسين الأوائل لأهرامات النقد التفكيكي.[1]

والحقيقة أن هذه الحركة المعرفية الجديدة والتي سميت بـ (ما بعد البنيوية) Post-structuraliseme قد قامت على أنقاض البنيوية وليست قطيعة في مسارها البنيوي، « إنما هي في أقصى تقدير نقطة انعطاف – بالمفهوم الرياضي – في منحى الدالة البنيوية، تعبر عن مراجعة البنيوية لنفسها وتأملها في مسار تطورها. وإذا تراءى ذلك للبعض بأنه انقلاب ما بعد البنيوية على البنيوية، إلا أن الذي حصل أن ممثلي ما بعد البنيوية هم بنيويون اكتشفوا خطأ طرائقهم على نحو مفاجئ، وليس أدل على

[1] انظر: بشير تاوريريت، **التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر دراسة في الأصول والملامح والاشكالات النظرية والتطبيقية**. (دار الفجر للطباعة والنشر: الجزائر). ط: 1. 2006م. ص: 11.

هذا من أن زعيم التفكيكية نفسه جاك دريدا لا يرعوي عن إعلان أن النقد الأدبي بنيوي في كل عصر».[1]

كما يذهب "كريستوفونوريس" إلى أن التفكيكية هي رد فعل تجاه البنيوية للتخفيف من انتشارها، ذلك أن التفكيكية خرجت عن عباءة البنيوية، وهو رأي يحدده ويقرره "عبد العزيز حمودة" حين يتحدث عن العلاقة بين التفكيكية والبنيوية لإظهار طبيعة المفارقة الفريدة في تاريخ النقد الأدبي بين الاثنين بقوله: « إن التفكيكين الأوروبيين والأمريكيين على السواء، خرجوا من عباءة البنيوية ».[2]

إذ نلاحظ هنا أن "عبد العزيز حمودة" لا يستخدم هذا القول بمعناه المجازى ليشير إلى علاقة أو علاقات وثيقة بين المنظورين لكنه في حقيقة الأمر يحمل معنى حرفيا وليس مجازيا، فالتفكيكيون فعلا خرجوا من عباءة البنيوية لأن غالبيتهم بدؤوا حياتهم كبنيويين ثم سرعان ما تحولوا عنها بعد أن فشلت البنيوية في تحقيق طموحاتهم، وعليه تحول الكثير منهم من أمثال "لاكان" إلى مجال التحليل النفسي و"دريدا" إلى فلسفة اللغة و"رولان بارت" الذي تحول في مرحلته الثانية إلى التفكيكية بعد أن خاب أمله في المشروع البنيوي منذ أواخر الستينات ورفضه رفضا صريحا له.

وتمثل فرنسا المهد الأول للتفكيكية، ومن أقوى الدوافع والأسباب التي ساعدت بلد كفرنسا على تبني هذا المشروع النقدي الضخم، تلك المحافظة التي تتميز بها

---

[1] يوسف وغليسي، **مناهج النقد الأدبي**. (دار جسور للنشر والتوزيع: الجزائر). ط: 1. 2007م. ص: 168، 169.

[2] انظر: عبد العزيز حمودة ، **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**. (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : الكويت). دط. 1998م.. ص: 317.

الذهنية الفرنسية ولفترة طويلة، فجاءت التفكيكية كردة فعل على هذه الأخيرة، وقامت برفض كل المذاهب السابقة لها، وخطأت كل المشاريع، بل أكثر من ذلك؛ إذ راحت تشك في كل شيء. ومن هنا رفضت التفكيكية التقاليد السالفة التي ترى أنها تحجب المعنى وتكبته، ومن ثمة حاولت أن تحل محل المذاهب النقدية السابقة لها باعتبارها المشروع النقدي البديل. ومن ثم تذهب التفكيكية إلى أن كل قراءة هي قراءة مزدوجة تسعى إلى دراسة أي نص دراسة تقليدية بالأول لإثبات معانيه الصريحة، ثم بعد ذلك تقوم بتقويضه في قراءة معاكسة تعتمد على ما ينطوي عليه النص من معان تتناقض مع ما يصرح به. أي أنها قراءة تهدف إلى إيجاد شرخ بين ما يصرح به النص وما يخفيه، فهي قراءة تقوم بقلب كل ما كان سائدا في الفلسفة الماورائية سواء كان معنى ثابت أو حقيقة قارة أو هوية أو الذات المتوحدة...إلخ.[1] ونتيجة لذلك ظهرت العديد من المقولات التفكيكية من طـراز: (غياب مراكز الإحالة المعرفية) و(الاختلاف والتأجيل) و(انتشار المعنى) و(لانهائية الدلالة) و(كل قراءة هي إساءة قراءة) و(اللعب الحر للدوال)... إلخ.

لكن، ونظرا لما جاءت به التفكيكية من الدعوة والمناداة بالتعدد اللانهائي لتفسير النص، رفضت الذهنية الفرنسية ما دعت إليه التفكيكية – بسبب التحفظ التي تمتاز به – ومن ثمة اضطر أصحابها إلى الهجرة إلى تربة أخرى ألا وهي أمريكا، وهكذا « هاجر التفكيكيون الجدد وعلى رأسهم جاك دريدا إلى مناخ ثقافي مختلف يقوم على

[1] انظر: ميجان الرويلي، سعد البازعي، **دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيار ومصطلحا نقديا معاصرا**. (المركز الثقافي العربي : دار البيضاء – المغرب). ط: 3. 2002م.. ص: 108.

التعددية الثقافية ويحتفي بها، ونقصد به المناخ الثقافي الأمريكي. وقد احتفت أمريكا بالمهاجرين الجدد ورحبت جامعاتها بالتفكيك، بل إنها سرعان ما أفرزت هي مدرستها التفكيكية التي تعتبر امتدادا للمدرسة الفرنسية وتطويرا جوهريا لها. ومدرسة (يال) yale النقدية والتي تضم ميللر وهارتمان وبول دي مان وبلوم شاهد حي على ذلك. وقد ضرب التفكيك في عمق التربة الثقافية الأمريكية إلى درجة نسينا معها جذوره الفرنسية وأصبحنا نتحدث عنه باعتباره مدرسة أمريكية ».[1]

ومن أهم العوامل التي ساعدت على تقبل المناخ الأمريكي للتفكيكية وسرعة انتشارها وتمركزها هناك، هو أن التفكيكية « ظهرت في الولايات المتحدة في مناخ من عدم الرضا على الوضع الذي كان سائدا آنذاك. فمع خروج النقد الجديد من الساحة في النصف الثاني من الخمسينيات والمقاومة القومية لتيار البنيوية بتركيبتها التي ركزت على قهر الذات، ذات المبدع والمتلقي، وذلك بإحلال اللغة كقوة قهر جبرية جديدة محل العقل، سادت الأوساط النقدية حالة من الجمود من ناحية، وعدم الرضا وتوقع الجديد من ناحية أخرى. وكانت التفكيكية هي الإجابة والمخرج. وهكذا انتشرت الأفكار التفكيكية بسرعة لم تتحقق لأي مشروع نقدي سابق ».[2] وهكذا انتقلت التفكيكية إلى أمريكا عبر رحلة قادها إليها "دريدا".

وقد لفت "دريدا" إليه الأنظار عام 1962م حيث نشر ترجمة لدراسة الفيلسوف الألماني "هوسرل" عن أصل الهندسة، وقدم لهذه الدراسة القصيرة بمقدمة طويلة تتعدى

[1] عبد العزيز بن حمودة، **المرايا المحدبة**. ص: 166

[2] المرجع نفسه، ص: 296.

المائة والخمسين صفحة، حيث حددت هذه المقدمة المعالم الرئيسية لخط التفكير الذي اتبعه "دريدا" بعد ذلك في كل كتاباته. والمهم أن تحليل "دريدا" لفينومينولوجية "هوسرل" كان نقطة البدء لنقده للفلسفة الغربية، وهو نقد عمل على إبرازه وتطويره في جل الكتابات والأعمال التي أصدرها فيما بعد.[1]

وفي سنة 1966م، وبناء على دعوة قدمت له شارك "دريدا" في مؤتمر ضخم في بالتيمز جامعة جون هوبكنز John Hopkins تحت عنوان: لغات النقد وعلوم الإنسان، وكان بحثه المقدم تحت عنوان: البنية والعلامة واللعب الحر في خطاب العلوم الإنسانية[2] Structure, sign, and freeplay in the discource of the human science. حيث التقى "دريدا" في هذا المؤتمر بعدة علماء وفلاسفة،[3] فلقد شارك في هذه الندوة « نجوم المشهد النقدي العالمي المعاصر من أمثال: رولان بارت، تزفيتان تودوروف، لوسيان غولدمان، جورج بولي، جاك لاكان،... إلخ. ويجمع جمهور الباحثين على عد تلك الندوة بمنزلة البيان التفكيكي الأول... وهو ما يعني– مرة أخرى – أن التفكيكية قد تخلقت في رحم البنيوية».[4]

---

[1] انظر: أحمد عبد الحليم عطية، **جاك دريدا والتفكيك**. (دار الفارابي : بيروت – لبنان). ط: 1. 2010م. ص: 18.

[2] وتعتبر أكثر المداخلات لفتا للنظر، وقد وضع فيها "دريدا" قواعد نظريته التفكيكية، على أن نشاط "دريدا" لم يكن مجهولا قبل هذه المداخلة، فقد كان له الكثير من الدراسات والمقالات نشرها في مجلة جماعة Tel quel مجلة أدبية تتصدر قضايا النقد الأدبي والسيميولوجي.

[3] انظر: أحمد عبد الحليم عطية، **جاك دريدا والتفكيك**. ص: 10.

[4] يوسف وغليسي، **مناهج النقد الأدبي**. ص: 176.

لقد كان "جاك دريدا" وبجدارة نجم تلك الندوة، وبالتمعن في ما جاء في هذه الندوة يتضح على أنها لم تكن مناقشة في البنيوية، بل يمكن القول أن أغلب الأطروحات المعروضة تنسب إلى ما بعد البنيوية. لتسود بعد ذلك التفكيكية الساحة النقدية الأمريكية في السبعينات، ويتأثر بها العديد من المؤلفين والنقاد أمثال: « بول دي مان الذي أصدر كتابين مهمين، كتاب العمى والبصيرة عام 1971م، وكتاب رموز القراءة عام 1979م. وعلى الرغم من أن دي مان يدور ضمن فلك دريدا، إلا أنه اشتق منظومة مصطلحات خاصة به استعان بها في الدرس والتحليل، وهارولد بلوم الذي أصدر كتابا بعنوان خارطة القراءة الخاطئة عام 1975م وجيوفري هارتمان بكتابه نقد في القفاز 1980م، وغيرهم ».[1]

وبذلك تهيمن أفكار "دريدا"، خاصة بعد إلقائه لمحاضرته الشهيرة في الجمعية الفلسفية تحت عنوان: الاختلاف سنة 1967م، والتحاقه بجماعة (نقد).[2] وبعد ذلك أصدر على الفور الكتب الثلاثة التي قدم فيها فكره التفكيكي وهي: في علم الكتابة De grammatologie، وهذا الكتاب أشهر كتبه على الإطلاق، وفيه يعارض النظرة العامة السائدة عن علاقة الكلام بالكتابة التي تعطي الكلام أفضلية مطلقة على الكتابة. وكتاب: الكتابة والاختلاف Ecriture et différence، ويعرض فيها أعمال عدد كبير من المفكرين المعاصرين واتجاهاتهم الفكرية، من أمثال

---

[1] عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي وآخرون، **معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة**. (المركز الثقافي العربي : الدار البيضاء). ط: 2. 1996م. ص: 37.

[2] انظر: أحمد عبد الحليم عطية، **جاك دريدا والتفكيك**. ص: 10.

"ميشال فوكو" و"ليفي شتراوس". وكتاب: الصوت والظاهرة La voix et le phénomène، خصصه للتحليل الفلسفي وتناول فيه نظرية "هوسرل "عن (العلامات) وخاصة فكرتي (الصوت) و(الحضور) ودورهما في الفينومينولوجيا، وهو من الكتب القليلة التي يعالج فيها "دريدا" موضوعا محوريا واحدا. [1]

وما يلاحظ على هذه الكتب الثلاث أنها تحتوي على بحوث نقدية في مجالات مختلفة، بحوث نقدية في الظواهرية عن "هاسرل"، والألسنية عن "دوسوسير"، والتحليل النفسي عن "لاكان"، والبنيوية عن "ليفي شتراوس،[2] مما جعلت "دريدا" شخصية أساسية في المناقشات النظرية التي سادت الحياة الفكرية الفرنسية في الستينات.[3]

ثم أردفها عام 1972م بكتب لاحقة من نوع: التشتيت La dissémination، مواقف Positions، هوامش الفلسفة Marges de la philosophie، وكتب أخرى ومقالات تدور في الأغلب حول كتابات وآراء غيره من المفكرين والفلاسفة والأدباء. ولقد أسهمت هذه الكتب والمقالات في تعميق هذا المشروع الفكري النقدي. وما يميز هذه الأعمال أن جلّها أعمال منبثقة من قراءة نقدية لكل من "أفلاطون" و"كانط" و"هيجل" و"روسو" و"نيتشه"و"هوسرل" و"هايدغر" وغيرهم

---

[1] انظر: **المرجع نفسه**. ص: 18.

[2] انظر: مادن ساروب، **دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة**. ترجمة: خميسي بوغرارة. (دار البعث : قسنطينة). دط. 2003م. ص: 47.

[3] انظر: أحمد عبد الحليم عطية، **جاك دريدا والتفكيك**. ص: 18، 19.

من الفلاسفة الذين كان لهم تأثير مباشر على الفكر التفكيكي،[1] كما سيأتي معنا لاحقا.

ومنذ ذاك الحين، نال "دريدا" « تقديرا عالميا في أوروبا وخارج أوروبا، واختير لعضوية كثير من الأكاديميات (أكاديمية الإنسانيات والعلوم بنيويورك، الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم... إلخ)، ونال جائزة نيتشه. ومنح العديد من ألقاب الدكتوراه الفخرية من جامعات (كولومبيا، واسكس ولوفان وكلية وليم والمدرسة الجديدة...) ».[2]

لقد وجه "دريدا" في معظم كتبه، نقدا للمقولات الفكرية التقليدية التي كانت في أساسها مقولات تقوم على تمجيد العقل والتمركز حوله، وعلى الصوت والكلام الذي هو في نظره نتاج الميتافيزيقا. كما أن معظم هذه الكتب تعبر بوضوح عن شكه وعدم ثقته في كل أشكال التفكير الميتافيزيقي، « حيث حاول نقد الفكر الغربي منذ أيام أفلاطون وأرسطو حتى هيدغر وليفي شتراوس وكذلك دو سوسير، واتهم ذلك الفكر الفلسفي بما سماه (التمركز المنطقي) Logocentrec وهو الارتكاز على المدلول وتغليبه في البحث الفلسفي واللغوي، وحتى عندما يحاول أولئك المفكرون عزل المدلول

[1] انظر: بيير زيما، **التفكيكية دراسة نقدية**. ترجمة: أسامة الحاج. (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع : بيروت).ط: 1. 1996م. ص: 6.

[2] أحمد عبد الحليم عطية، **جاك دريدا والتفكيك**. ص: 10.

فإنهم يستعينون على ذلك بمدلول بديل. ولكي يثبت "دريدا" مقولته أخذ في تشريح كتابات أولئك الفلاسفة وذلك كي ينقض (التمركز المنطقي) من داخل حصونه ».[1]

إن هذا التمركز العقلي دفع العقل إلى واجهة الاهتمام، وأعطاه سلطة فعالة في مسار الفكر، فأصبح القياس العقلي المنطقي أنموذجا معياريا تقاس في ضوئه كل النماذج الفكرية حيث آل في نهاية المطاف مفهوم مجرد ذي قوة لا متناهية. وعليه كان لا بد لـ "دريدا" أن ينصرف إلى تفكيك هذا التمركز، سعيا وراء ظهور نمط من التفكير الذي يتجاوز نسق التمركز المذكور.[2]

و من أجل تحقيق ذلك، عمل "دريدا" بكل جهده على ملاحقة كل صورة للميتافيزيقا، فأول ما أعلنه هو الدور الحر للغة؛ أي أن "دريدا" يرى أنه لإبطال التمركز العقلي لا بد من دخول المجال اللغوي، ولكن هذه المرة من باب آخر، باب مغاير تماما لما دخلت منه البنيوية، ذلك كون "دريدا" وجد أن البنيوية لم تستطع الخروج عن تأثير الميتافيزيقا على الرغم من محاولتها القيام بذلك، لكونها بقت تؤكد في العلاقة بين الدال والمدلول على أولوية الدال (الكلمة المنطوقة) على أولوية المدلول (المفهوم)، بل أكثر من ذلك، فإن طرح "دو سوسير" للنسق العلمي للغة هو الآخر ضحية النظرة الميتافيزيقا. هذا من جهة ومن جهة أخرى إن اعتبار "دو سوسير" نمط الكتابة الغربية الوحيد المعبر عن اللغة وتجاهله لأنماط أخرى من الكتابة كالبابلية

---

[1] عبد الله الغذامي، **الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراء نقدية لنموذج معاصر**. (الهيئة المصرية العامة للكتاب). ط: 4. 1998م. ص: 54.

[2] انظر: باسم علي خريسان، **ما بعد الحداثة دراسة في المشروع الثقافي الغربي**. (دار الفكر : دمشق). ط: 1. 2006م. ص: 155.

والتصويرية والمصرية والصينية واليابانية، يكون بذلك قد سقط في حبائل مركزية عرقية مرتبطة بالمركزية الصوتية الغربية.[1]

ولهذا العيب الذي وقعت فيه البنيوية، يدعو "دريدا" إلى « الدور الحر للغة بوصفها متوالية لا نهائية من اختلافات المعنى... ولم يقتصر تأثير دريدا على الفكر الفلسفي إنما امتد إلى النقد الأدبي وعلم الاجتماع والنظرية السياسية وعلم النفس والأنثروبولوجيا، واللاهوت، وغير ذلك من حقول الإنسانية».[2] ولكن تبقى الفلسفة الحقل الأساسي الشاغل لجهود "دريدا" لملاءمتها أكثر لإستراتيجيته التفكيكية.

إن عناية "دريدا" بالفكر الفلسفي، ومراحل تطوره، وأبرز كشوفاته، جعلت من هذا الفكر الفلسفي أحد الروافد الأساسية لثقافته وفكره، وإن كنا لا ننسى طبعا الدور الفعال الذي قدمته له اللسانيات. وهكذا يمكن التأكيد أن "دريدا" طور منهجيته الخاصة من البنيوية إلى النظر في المنظومة الفلسفية والفكرية الغربية، فاجتمعت لديه الوسيلة والموضوع، أي المنهج المستند إلى رؤية جديدة والموضوع المتخم بالمعارف المتراكمة.[3]

وفي حقيقة الأمر، أنه عند محاولتنا الوقوف عند التفكيكية كمنهج نقدي ومحاولة فهم أغواره، وأول ما يصادفنا هو ارتياب وحيرة كبيرة في فك لغزه، فمن الصعب جدا

---

[1] انظر: **ما بعد الحداثة**. ص: 154.

[2] عبد الله إبراهيم، **التفكيك الأصول والمقولات**. (عيون المقالات : الدار البيضاء). ط: 1. 1990م. ص: 36.

[3] انظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، **في معرفة الآخر**. ص: 36.

وليس بالشيء الهين الحديث عن شيء اسمه منهج "دريدا"، فهو نفسه ينفي وجود منهج خاص به بل ينفي أن يكون لديه نظرة معينة يمكن أن تسلم بالأدب واللغة والفلسفة أو أنه يقدم بديلا عن الميتافيزيقا الغربية. ف "دريدا" يشرح ممارسته للتفكيك عن طريق الأمثلة أو الحالات وليس عن طريق نظرية عامة أو بحث حول الموضوع. والواقع أنه يقول صراحة « إن التفكيك ليس نظرية أو منهجا وليس مذهبا هرمينوطيقيا بالقطع. بل يمكن تسميته – مؤقتا – (استراتيجية للنص)، وحتى نكون أكثر دقة، إنه (ممارسة) وليس نظرية ».[1]

وربما يعود نفي لصفة (النظرية) أو (المنهج) على التفكيكية، هو أن "دريدا" لو أرسى تفكيكيته على مفاهيم ثابتة ذات دلالات ومعان إلزامية مستقرة لوقع في اتجاه مركزية الكلمة من جهة ولجعل من التفكيكية نظرية ثابتة ذات قوالب جامدة، ونفى عنها صفة النشاط الدائم غير المستقر، وهذا طبعا ما كان دائما "دريدا" بصدد نفيه ومحاربته.

وعليه، فقراءة "دريدا" ليست بالعملية السهلة بتاتا،[2] لأننا نحتاج فيها إلى الكثير

---

[1] عبد العزيز حمودة، **المرايا المحدبة**. ص: 309. نقلا عن: Irene Harvey, **The Wellspring of Deconstruction**," in Tracing Literary Theory.p 139 Art Berman, From the New Criticism to Deconstruction,p.220.

[2] نود في هذا المقام أن نشير إلى نقطة هامة جدا، إذ كثيرا ما توصف حياة "دريدا" بأنها مفككة وهذا التفكك انطبع على فلسفته بشكل عام، وهذا خاصة مما كتبه "دريدا، فلقد كان يعي تماما أنه يهودي من الجزائر، وأنه مقطوع من جذوره اليهودية العربية، وأنه لم يستطع أن يسكن في لغة أجداده العربية والعبرية، وإنما يسكن فيها دون أن يشعر بأنه في بيته. كما أشار "دريدا" إلى أن الطائفة اليهودية في الجزائر، والتي ينتمي إليها، تم تفكيكها أو بعثرتها ثلاث مرات على الأقل: أولا: عبر فصلها في البداية عن اللغة أو

من التركيز وكثرة الاطلاع، فزعزعة الثوابت وتهديمها ليس بالأمر السهل، لهذا السبب تبدو إستراتيجية "دريدا" محيرة ومقلقة ومغامرة.

ولكي يهدم "دريدا" هذه الثوابت والتمركز المنطقي الذي عرفته الحضارة الغربية وخطابها الخاص بها والخارج بدوره من اللاهوت مباشرة، فإنه يدفع هذا الخطاب وما عرفه من مفاهيم مثل (الأصل) و(الهوية) باتجاه بعض المصطلحات أو المفاهيم التي تحمل في ذاتها قوة على الخلخلة والتفكيك وتوحي بالنسبية والتشظي والتشتت وانعدام اليقين، وهي ألفاظ من مثل: (مركزية اللوغوس) و(الأثر) و(الاختلاف) و(الانتشار) و(علم الكتابة) وغيرها من المصطلحات التي تعد بمثابة الأطر النظرية والمنطلقات الابستيمولوجية التي من خلالها يتأتى لنا فهم نظرية "دريدا" والاطلاع على الكيفية التي تعمل بها داخل النص المدروس.

ومن أجل تقديم إيضاح أكثر لهذه المنهجية التفكيكية لا بد لنا من دراسة منطلقات "دريدا" التي استند إليها في طرحه، ومحاولة الوقوف عند أبرز الأدوات أو الميكانزمات المنهجية والفكرية التي يستعين بها للتأكيد على ما جاء به، هذه الأدوات التي كانت بمثابة المرتكزات الأساسية التي ينهض عليها تفكيكه، وينظم إستراتيجيته في القراءة والتأويل وفقها، وذلك خروجا على ما أرسته المنهجيات السابقة من تقاليد بحث ومعاينة. وفيما يلي نستعرض بعض أهم تلك المنطلقات والأسس، ولنبدأ بـ:

الثقافة العربية أو البربرية، وثانيا: عبر فصلها عن اللغة وعن الثقافة الفرنسية، إن لم نقل الثقافة الأوربية برمتها، وثالثا: عبر انقطاعها عن الذاكرة اليهودية ذاتها دينيا وتاريخيا. فنلاحظ أن "دريدا" نفسه كمؤلف أول للتفكيكية، إنما كانت إنتاجاته ترجمة للاغتراب والتفكك وأزمة الهوية التي كان يعيشها، فلا يمكن أن نفكك نص "دريدا" دونما أن نعرف "دريدا" نفسه.

- **المنطلقات والأسس النظرية للنقد التفكيكي**

1. مركزية اللوغوس[1] Logocentrise

مركزية اللوغوس أو ما يعرف بـ (التمركز حول العقل) أو (مركزية الكلمة) أو (ميتافيزيقا الحضور)، والتي تعني الاعتقاد بوجود (مركز) centre ثابت وهو ما يعنيه بـ (الحضور) خارج النص وخارج (اللغة) يكفل ويثبت صحة المعنى دون أن يكون هو قابلا للمراجعة أو المساءلة أو الطعن فيه أو البحث في حقيقته بغض النظر عن خصائص الفكر الذي يحيل عليه، مثاليا كان هذا الفكر أو ماديا، والذي يتجسد في مفاهيم من طراز: (الله) أو (الهوية) أو (المادة) أو ما شابه ذلك. حيث يذهب "دريدا" إلى أن هذا التمركز حول العقل الذي لاذت به الحضارة الغربية وذلك بدءا من "أفلاطون" إلى "دو سوسير"، لم يكن أكثر من ميتافيزيقا بديلة للميتافيزيقا التي تطرحها الأديان.[2]

يرى "دريدا" أن الفكر الغربي « قائم على ثنائية ضدية عدائية تتأسس عليها ولا توجد إلا بهذه الثنائية، كثنائية: العقل / العاطفة، العقل / الجسد، الذات / الآخر، المشافهة / الكتابة، الرجل / المرأة، وما إلى ذلك. وأن هذا الفكر دائما يمنح الامتياز والفوقية للطرف الأول ويلقي بالدونية والثانوية على الطرف الثاني، هذا الانحياز للأول

---

[1] اللوغوس لفظ يوناني يطلق تارة على المنطق والعقل وتارة أخرى يعني اللغة. انظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، **معرفة الآخر**. ص: 123. وقد نقل هذا المصطلح الدريدي إلى العربية بأشكال مختلفة نذكر منها: مركزية العقل، مركزية اللغة، مركزية الكلمة.

[2] انظر: باسم علي خريسان، **ما بعد الحداثة**. ص: 156، 157.

على الثاني هو ما يسميه دريدا بـ (التمركز المنطقي) أي تمركز اللفظ والنطق ».[1] ومعنى هذا أن "دريدا" يرى أن الفلسفة الغربية تحاول منذ "أفلاطون" افتراض وجود شيء يسمى الحقيقة أو الحقيقة السامية المتميزة والذي يمثل دائما الطرف الأول من حد الثنائيات السابقة وغيرها، بحيث يحتل هذا الطرف الأول مركز الصدارة في كل المذاهب الفلسفية مثل: (الصورة)، (المبدأ الأول)، (الأزل)، (الغاية)، (الهيولي)، (الرب)... إلخ.

وعليه لقد حاول التفكيكيون انتقاد هذا الخطاب الفلسفي الغربي، بل شن هجوما على هذا التراث ونقده من داخله، ولهذا فـ "دريدا" يدعو إلى ضرورة التفكير بعدم وجود مركز،[2] فـ « المركز لا يمكن لمسه في شكل الوجود، بل ليس له خاصية مكانية، كما أنه ليس مثبتا موضعيا بل وظيفيا، إنه في حقيقة الأمر، نوع من اللامكان، وبغيابه أو تقويضه يتحول كل شيء إلى خطاب وتذوب الدلالة المركزية أو الأصلية

---

[1] ميجان الرويلي، سعد البازعي، **دليل الناقد الأدبي**. ص: 108.

[2] يذهب العديد من الدارسين من أمثال: "امبرتو إيكو" و"عبد الوهاب المسيري" و"محمد احمد البنكي" وصاحبا دليل الناقد الأدبي وغيرهم إلى أن سعي "دريدا" إلى رفض المركزية يعود على أصوله اليهودية، فنزعته اليهودية جعلته يرفض المركزية الأوروبية التي تحسب كل صيحة عليها مانحة لنفسها قصب السبق والتميز في كل مناحي الحياة الإنسانية، وهذا ما جعل "دريدا" يتهمها بالتمركز على الذات مغلقا خطابه الأيديولوجي اليهودي بقناع الفلسفة والفكر والأدب. انظر: هشام الدركاوي، **التفكيكية التأسيس والمراس**. تقديم: الرحالي الرضواني. (دار الحوار للنشر : سوريا). ط: 1. 2011م. ص: 63، 64. وللمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى كتاب: **دليل الناقد الأدبي**، أو إلى كتاب: جاك دريدا، **أحادية الآخر اللغوية**. ترجمة: عمر مهيبل.

المفترضة أو المتعالية، وينفتح الخطاب على أفق المستقبل دونما ضوابط مسبقة وتتحول قوة الحضور، بفعل نظام الاختلاف، إلى غياب للدلالة المتعالية».[1]

وهكذا فإن المنهج التفكيكي سيتحول إلى طريقة وأسلوب لفهم النصوص فهما متعارضا مع الفهم التقليدي الذي كان يتصور أن اللغة أداة تواصل وتبليغ فعلي للمعنى. وهذا يعني أن التفكيكية سوف تسعى إلى رفض الإحالة إلى سلطة موثوق فيها؛ أي الإحالة إلى مرجعية ما لفهم النص أو إلى حقائق أو ثوابت موثوق بها مسبقا. ومن هنا وفي ظل رفض "دريدا" لـ (فلسفة الحضور) انطلق يقول بـ (فلسفة الغياب)؛ وهي فلسفة تتصدى لتطابق الفكر مع مقولاته.[2] « ولذا فقد كان على التفكيكية طيلة السنوات اللاحقة لتأسيس دريدا أن تعمل على تقويض الخطاب الفلسفي والنقدي الغربي، عبر تقويض مفهوم المركز الثابت للإحالة المعرفية، وتقويض العلاقة المراتبية المسلم بها في الثنائيات الضدية. ودريدا في سعيه إلى نقض فلسفة الحضور يكون قد جعل الفكر لا ينام على قناعته، ولا يتطابق مع مقولاته ».[3]

يذهب "دريدا" إلى أن النص متكون من وحدات لغوية وكلمات وتراكيب توحي للوهلة الأولى بالمعنى العادي الذي يتشكل لدى أي قارئ من خلال القراءة الأولى له، لكن النص يبقى يحتمل أكثر من هذا المعنى وأكثر من هذا التأويل الذي قد يصل

---

[1] عبد الله إبراهيم وآخرون، **معرفة الآخر**. ص: 124.

[2] محمود فتحي عبدالعال أبودوح، « **استراتيجية التفكيك أداة المنهج في الفكر ما بعد الحداثي** ». الحوار المتمدن، صحيفة يسارية علمانية الكترونية يومية مستقلة في العالم العربي. العدد: 2999. 2010 م. (نسخة الكترونية)

[3] بشير تاوريريت، **التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر**. ص: 41.

إليه قارئ واحد وهذا ما يسمى عنده بـ (الغياب). فـ "دريدا" بنقده لسلطة الحضور التي تمركز حولها الفكر الغربي يكون قد أزال ذلك الحاجز الذي عمل لمدة طويلة على كبت المعنى والحد من انطلاقه وتعدده، فهو بمقولة الغياب التي دعا إليها، جعل من معنى النص المكتوب أو الخطاب اللغوي دائما مؤجلا غائبا مختلفا متنوعا حسب شخصية وثقافة كل قارئ وكل متلق، في حين قصرت ميتافيزيقا الحضور معنى الأشياء وحقائقها في وجودها وحضورها كشيء متجل وواضح أمام الدارس أو المتلقي.[1]

2. علم الكتابة[2] Grammatologie

(grammatologie) وهي « مصدر بالكلمة الإغريقية (gramma) التي تدل في الأصل على (الحرف) lettre، وقد تناقلتها اللغات اللاتينية، ومنها الفرنسية التي دخلتها في نهاية القرن الثامن عشر ميلادي بالشكل (gramme)، وصارت من لواحق كثير من كلماتها مثل: برقية télégramme، كتابة مشفرة cryptogramme،... إلخ. وكل كلمة تدخل في بنائها هذه اللاحقة الإغريقية، إنما تتضمن معنى (الكتابة) (un écrit)، وحين نضيف إليها اللاحقة (logie) الدالة

[1] انظر: **المرجع نفسه**. ص: 40.

[2] كثيرون هم من ترجموا هذا المفهوم بـ (النحوية) وقد كان "الغذامي" سباقا إلى هذه الترجمة، يقول في سياق حديثه عن "جاك دريدا": « وانطلاقة دريدا كانت مع صدور كتابه of Grammatology أي (في النحوية) في عام 1967م بفرنسا ». عبد الله الغذامي، **الخطيئة والتكفير**. ص: 54. أما (الكتابة) فأهلها كثيرون منهم: "عبد الملك مرتاض" في كتابه: **في نظرية النقد**. و"محمد عصفور" في: **البنيوية وما بعدها**.

على معنى (العلم) science،وتصبح الدلالة الحرفية لكلمة (Grammatologie) هي (علم الكتابة) ».[1]

أما "جاك دريدا"، فقد أشار إلى مصطلح (Grammatologie) في حديثه عن الكتابة، وجعل من الكتابة موضوعا لعلم جديد. ثم أشار إلى أن اللفظ لم يستعمل إلا من قبلJ. Gelb في كتابه: A Study of Writing - The Foundations of Grammatology عام 1952م.[2] ثم جعل منه عنوانا لكتابه الذي أصدره عام 1967م والذي يعد أحد كتبه الثلاث التي ساهمت في انتشار التفكيكية.

ويأتي "دريدا" بما اصطلح عليه Grammatologie؛ أي (علم الكتابة) وذلك في مواجهة للفكرة القائلة بـ (مركزية الصوت)، حيث قام بدحض كل الحجج التي تقول بأفضلية (الكلام) على (الكتابة) والإعلاء من شأن الكلمة المنطوقة على حساب الكلمة المكتوبة.

فقد كان لمفهوم (الكتابة) في المنظور الفلسفي الغربي وذلك منذ "سقراط" إلى "دو سوسير"، لا يغدو أن يكون مجرد مفهوم يقوم على تشويه الحقائق، ذلك أن الكتابة تقوم على ضروب من الرمزية التي تموه الحقائق، في حين رأوا أن الكلمة

---

[1] يوسف وغليسي، «**علم الكتابة في الفكر التفكيكي قراءة اصطلاحية**». مجلة الآداب الاجنبية. (دمشق). العدد: 129. شتاء2007 م. (نسخة الكترونية)

[2] انظر: يوسف وغليسي، «**علم الكتابة في الفكر التفكيكي قراءة اصطلاحية**». مجلة الآداب الاجنبية. (دمشق). العدد: 129. شتاء2007 م. (نسخة الكترونية).

المنطوقة وحدها لها القدرة على نقل هذه الحقائق كما هي.[1] وانطلاقا من هذه الرؤيا التقليدية عرفت الكلمة المكتوبة بأنها التمثيل الكتابي للكلمة المنطوقة، وبهذا الصدد فإنها (دال) الكلمة المنطوقة، وهكذا فإن الكلمة المكتوبة هي (دال) الدال وتعد ثانوية بالنسبة إلى الصورة الصوتية ومن الممكن إهمالها، بل لا بد من إهمالها، فالكلمة المكتوبة لا يمكن أن تقوم بأي شيء عدا تمثيل الكلمة المنطوقة، فالكتابة إذن حدثا ثانويا يأتي بعد النطق وليس له وظيفة إلا أن يدل على هذا الأخير ويحيل إليه.[2]

إلا أن التفكيكيين ذهبوا عكس ما ذهب إليه التقليديون، إذ رأوا أن الكتابة تقدم للغة سلسلة من العلامات المرئية التي تعمل في غياب المتكلم، فهي على نقيض الكلام تتجسد عبر نظام مادي من العلامات، بينما يقتصر الكلام على الصوت، كما أن الكلام يختفي باختفاء المتكلم فهو لا يمتلك خاصية البقاء التي تمتلكها الكتابة.[3]

ضف إلى ما سبق، فالكتابة عند أصحاب التفكيك تمتلك لخاصية غير موجودة في الكلام إذ بمقدورها الانتقال من مرجع إلى آخر (تعدد السياقات)، كما يمكن رصدها مع علامات أخرى لتتنوع دلالاتها في كل سلسلة جديدة من العلامات. إن هذه المزايا التي تجدها العلامة في الكتابة وتفتقدها في الكلام لهي أكبر دليل على بطلان فلسفة الحضور في الميتافيزيقا الغربية ومركزية الصوت التي تعتمدها كما يرى "دريدا".[4]

---

[1] انظر: بشير تاوريريت، **التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر**. ص: 70.

[2] انظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، **في معرفة الآخر**. ص: 133.

[3] انظر: **المرجع نفسه**. ص: 132.

[4] انظر: بشير تاوريريت، **التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر**. ص: 73.

بل يذهب التفكيكيون إلى أكثر من ذلك، إذ أن الكتابة عندهم يمكنها أن تسبق حتى اللغة، وتكون اللغة نفسها تولدا ينتج عن النص، فهي تستوعب اللغة فتأتي كخلفية لها بدلا من كونها إفصاحا ثانويا متأخرا. فالكتابة إذن ليست وعاء لشحن وحدات معدة سلفا، إنما هي صيغة لإنتاج هذه الوحدات وابتكارها.[1]

و بهذا يكون "دريدا" « قد أماط اللثام على بعض الجوانب الإيجابية للكتابة، كما عمل على قلب التصور المعادي للكتابة، داعيا إلى إقامة مكتوب الغياب على أنقاض منطوق الحضور، من خلال الدعوة إلى كتابة خالصة، تقتل الكلام وتحل محله. وانطلاقا من هذا أعلن دريدا (موت) الكلمة المنطوقة، فموت الكلام هو أفق اللغة وأصلها على حد تعبير جاك دريدا ».[2]

وبإعلانه موت الكلمة المنطوقة فتح "دريدا" المجال أمام الكتابة لتشمل اللغة، ولتمتد إلى جميع المجالات والحقول الأخرى، وهكذا سيمكننا الحديث عن كتابة رياضية وكتابة سياسية وعسكرية... إلخ. ذلك أن الكتابة لا تخضع للكلام، بل هي ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها، فليس هناك وجود لمجتمع أي مجتمع من دون كتابة، من دون علامات، من دون توثيق، لا وجود لمجتمع حتى وإن كان حيوانيا من دون أثر أو علامات على الأرض. ويكفي طبقا لـ "دريدا" لكي نقتنع بأهمية الكتابة أن نتصور مجتمعا بدونها، أكيد لا يمكن تخيل ذلك لأنه سيكون مجتمع أسير الأساطير

[1] انظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، **في معرفة الآخر**. ص: 133.

[2] يوسف وغليسي، **إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد**. (الدار العربية للعلوم ناشرون – منشورات الإختلاف : بيروت – لبنان).ط: 1. 2008م. ص: 368.

والحكايات ومن هنا تكتسب الكتابة أهميتها.[1]

وعليه فالعناية البالغة للكلام المنطوق باعتباره خزانا للمدلولات ومرجعا صريحا، وأن الكتابة تابعة له ولا ترقى إلى مستواه وهي ثانوية، هذا ما جعل "دريدا" يرفض الكلام، ويعتبره مكرسا لمقولة التمركز حول اللوغوس ما دام يتضمن سلطة صاحبه (المتكلم)، الذي يحاول – حسب "دريدا" - حصر الدلالة وانتهاء المعنى، ومن ثمّ تثبيت معنى الدلالة، وفي هذه الحالة تصبح الأسبقية للمعنى وبالتالي الأسبقية لوعي المتكلم، ومنه تصبح اللغة (الدال) مجرد وسيلة لنقل المعلومات وليست غاية.[2]

ولكي يبرر "دريدا" موقفه وقناعته بامتياز الكتابة وأسبقيتها على الكلام، وعدم ارتباطها بأي تمركز منطقي من أي نوع، تبنى مصطلح ثالث من مصطلحاته والذي يعرف بـ (الاختلاف)، الذي تتحول بمقتضاه اللغة إلى دوال لا تشير إلى مدلولات بقدر ما تشير دائما إلى دوال أخرى وبالتالي استحالة تامة في تثبيت الدلالة وفتح كوة اللانهاية واللاتحديد كما سيأتي معنا. ومن ثم تتحرر أي كلمة من أي تمركز كان.

[1] انظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، **في معرفة الآخر**. ص: 135.

[2] انظر: هشام الدركاوي، **التفكيكية التأسيس والمراس**. ص: 61.

3. الاختلاف[1] différance

تعد مقولة (الاختلاف) إحدى المرتكزات الأساسية للمنهجية التفكيكية، بل تعتبر حجر الزاوية في فلسفة "دريدا" أو هي العمود الفقري لها. وولد "دريدا" هذا المصطلح المركزي différance في فكره التفكيكي، وذلك في بحث بعنوان: الاختلاف، نشره في كتابه: الكلام والظاهرة. ونظرا لكون هذه اللفظة مهجنة تتركب من عدة مفردات

[1] تعددت ترجمات هذا المفهوم واختلفت من باحث إلى آخر؛ فقد تحدث "كاظم جهاد" مترجم مجموعة من نصوص "دريدا" تحت عنوان: الكتابة والاختلاف، إلى صعوبة ترجمة هذا المفهوم، ولذلك اقترح ترجمته بالاختلاف، وكتابتها على هذا الشكل: الاخ(ت)لاف (بوضع التاء بين قوسين)، على أن يكون هذا الإجراء مؤقتا في انتظار أن يتمكن هو أو غيره من المترجمين اقتراح بديل له أكثر دقة ونجاعة. انظر: جاك دريدا، **الكتابة والاختلاف**. ترجمة: كاظم جهاد. تقديم: محمد علال سيناصر. (دار توبقال للنشر : الدار البيضاء). ط: 2. 2000م. مقدمة المترجم. وقد اعتمد هذا الشكل كثير من النقاد العرب وفي مقدمتهم "سعد البازعي" و"ميجان الرويلي" في دليل الناقد الأدبي. أما "عزالدين الخطابي" و"إدريس كثير" فقد اقترحا كتابة الاختلاف على هذا الشكل: (الاختلاف) وذلك (بوضع الألف بين قوسين)، وأكدا على الطابع التقني لهذه المسألة وذلك لتعدد معاني هذا المفهوم. انظر ترجمت كتاب: سارة كوفمان، **مدخل إلى فلسفة جاك دريدا تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الأثر**. (أفريقيا الشرق : المغرب). ط: 2. 1994م. أما "عبد الوهاب المسيري" فيترجمها بـ (الاخترجلاف)، فقد عمد إلى كلمتي (الاختلاف) و(الإرجاء) فنحت منهما هذه الكلمة الجديدة لتقابل كلمة (la différance) في اللغة الفرنسية. ويترجمها "عبد العزيز بن عرفة" بـ (الاختلاف المرجأ) وذلك (بتضعيف حرف الجيم). انظر: **الدال والاستبدال**. (دار الحوار : الاذقية – سوريا). ط: 1. 1993م. ويقترح "عبد السلام بنعبد العالي" كلمة (مباينة)، ويبرر هذا الاقتراح بكون مادة هذه الكلمة (ب.ي.ن) تدل في: لسان العرب لابن منظور على الاختلاف والتمايز، كما تدل، أيضا، على معاني الابتعاد والمسافة. انظر: **أسس الفكر الفلسفي المعاصر مجاوزة الميتافيزيقا**. ط: 2. (دار توبقال للنشر : الدار البيضاء). 2000م.

- إنما ذلك يكشف عن جزء من عدم استقرار التفكيكية على ما هو يقيني - كان لابد لنا أولا من الوقوف عند دلالتها اللغوية. فاستنادا إلى عدة مفردات وردت في كتابات "دريدا"، كشفت لنا عن المفردات التي تتركب منها لفظة (différance)، وهي جميعا أفعال ذات خواص زمانية ومكانية، فثمة différe وهي مفردة توحي بالتشتت والانتشار والتفرقة والبعثرة، ويتضح من هذا أن دلالة différe مكانية، فالانتشار والتبدد والتفرق خواص لأشياء مكانية ترتبط بمفاهيم الفضاء والحيز. بينما توحي لفظة différence على التأجيل والتأخير والإرجاء والتعويق. ويتضح أنها تقترن بخاصية زمانية، فالإرجاء والتواني والتأجيل هي صفات لتعويق استمرار اللحظات الزمنية.[1]

فكلمة différanceإذن نحتها "دريدا" من كلمتي (différer) بمعنى (أرجأ) و(أجل) و(La différence) بمعنى (التباين) و(الاختلاف).

وفي اللغة الفرنسية فإن الحرف (a) في الكلمة différance لا يلفظ، وعليه فإن تلك الكلمة تلفظ بصورة différence، ومنه لا يتضح الاختلاف في النطق، وإنما يتضح الفارق بينهما إلا من خلال الكتابة فقط.[2] و"دريدا" بقيامه بهذا العمل، يقوض دعائم ميتافيزيقا الحضور وأسسها القائمة على التمركز حول الصوت المنطوق، ومقولات وضوح الكلمة المنطوقة وحضورها، وبالمقابل يؤكد أهمية الكتابة ووضوحها، ويقوي من فعاليتها الدلالية والفلسفية. إن "دريدا" بهذا الإجراء، يقلب المعادلة التقليدية، فيضحى النطق هو الثانوي قياسا إلى الكتابة، لأنه كشف عن عجزه على

[1] انظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، **معرفة الآخر**. ص: 117.

[2] انظر: المرجع نفسه ص: 117.

إظهار الصوت. إن الصوت – في هذه الحال – يشكل خطرا على الكتابة. وكل هذا سيوجه الاهتمام نحو كل ما هو مكتوب.[1]

وما يمكن الوقوف عنده هنا أن (الاختلاف) différance ذات معنى مزدوج فهو أولا: فعل يراد به التأجيل إلى ما بعد، وأخذ الزمن بعين الاعتبار. ويراد به ثانيا: المعنى الآخر، ويعني الاختلاف والمباينة وعدم المطابقة. كما أن لفظ (الاختلاف) لا يشكل كلمة ولا لفظا ولا مفهوما[2] وما يؤكد هذا أنه لا وجود له – بهذا الشكل – في قاموس اللغة الفرنسية، بل هي كلمة جديدة اصطنعها "دريدا" ويكتبها بحرف (a) عوض حرف (e) الذي تكتب به في اللغة الفرنسية. والحقيقة أن الدلالة الثنائية لـ différence، différance بصفته مصطلحا مبتكرا إنما جاء به "دريدا" بهذه الصورة الملحمة المتداخلة لهدف آخر وهو تقويض الثنائيات التي أرستها الفلسفة الغربية منذ قرون.[3]

والواقع أن حرف (a) يحتل مساحة كبيرة أثناء كل حديث عن هذه الكلمة، ويكثر التساؤل كثيرا حول دلالته وأبعاده، فما المقصود بهذه الكلمة؟

أما عن أصل هذه الفكرة – الاختلاف - فلقد استوحاها "دريدا" من مقولات الخطاب الألسني، وخاصة ما توصل إليه "دو سوسير"، «فهذا الأخير قد توصل إلى نتيجة حاسمة حين بنى المعرفة اللغوية على (الاختلاف). فمعرفة الكلمة وما تعني ليست

---

[1] علي صديقي،« **إشكالية ترجمة مفاهيم التفكيك (Déconstruction) في النقد العربي المعاصر** ». مجلة العربية والترجمة. العدد: 1. ربيع 2009م. (نسخة الكترونية).

[2] انظر، عادل عبد الله، **التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل**. ص: 73.

[3] انظر عبد الله إبراهيم، **التفكيك الأصول والمقولات**. ص: 53.

سمة قارة فيها، بل الكلمة تعني وتقبل الإدراك لأنها تختلف عما سواها »؛[1] أي أنه يرى أن العلامات لا تدل بذاتها وإنما باختلافها عن غيرها. وإلى هذا يذهب "دريدا" حيث يرى أن المعنى يتولد من خلال اختلاف دال عن آخر، فكل دال متميز عن الدوال الأخرى ومع ذلك فهناك ترابط واتصال بينهما، وكل دال يتحدد معناه داخل شبكة العلاقات مع الدوال الأخرى، لكن معنى كل دال لا يوجد بشكل كامل في أية لحظة (فهو دائما غائب رغم حضوره) إذ أن كل دال مرتبط بمعنى الدال الذي قبله والدال الذي بعده، ووجوده ذاته يستند إلى اختلافه مع غيره.[2] ومعنى هذا الكلام أن "دريدا" يرى أن (الدال) يختلف بعضها عن البعض الآخر، ولا يتضح معناها إلا من خلال هذا الاختلاف. فليس هنالك حضور مادي للعلامة، هنالك لعبة الاختلافات فقط.[3]

أما عن الشق الآخر من المصطلح كما يستخدمه "دريدا" ويقصد به (التأجيل)،[4] فكما هو واضح من معناها العام يقصد بها؛ أننا حين نعجز عن الإتيان بشيء أو بفكرة فنحن نشير إليها بكلمة ومن ثم فنحن نستخدم العلامات مؤقتا ريثما نتمكن من الوصول إلى الفكرة، وعلى هذا فإن اللغة هي (حضور مرجأ للأشياء والمعاني). وعليه، « فلو أردت مثلا أن تعرف معنى دال ما فبإمكانك البحث عنه في معجم،

[1] ميجان الرويلي، سعد البازعي، **دليل الناقد الأدبي**. ص: 108.

[2] انظر: باسم علي حريسان، **ما بعد الحداثة**. ص: 170. نقلا عن: عبد الوهاب المسيري، **اليهودية وما بعد الحداثة**. مجلة إسلامية المعرفة. العدد: 10. ص: 114.

[3] انظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، **معرفة الآخر**. ص: 119.

[4] والواقع أن مفهومي (الاختلاف / التأجيل) يستخدمان بإعتبارهما معادلة واحدة مكونة من شقين، الإ أننا قصدنا —كما ذهب إلى ذلك الكثير من الدارسين – التقسيم المؤقت بهدف شرح المصطلح.

ولكن كل ما ستجد هو دوال أخرى بإمكانك من جديد البحث عن مداليلها بنفس الطريقة وبنفس النتيجة وهلم جرا، وهذه العملية ليست لا نهائية فحسب بل دائرية أيضا: الدوال تتحول إلى مداليل والعكس صحيح، ولن تجد أبدا مدلولا ليس في الوقت نفسه دالا ».[1]

فالتأجيل أو الإحالة إذن، يعني عملية مستمرة من تأجيل الدلالة، فكل كلمة في اللغة تقودنا إلى أخرى في النظام الدلالي، دون التمكن من الوقوف النهائي على معنى محدد.[2] فدلالة كلمة ما تشير دائما إلى مدلول يراوغها، ويشير هو الآخر إلى مدلول ثان، فيتحول بذلك إلى دال وهكذا، وبهذا يحد "دريدا" من هيمنة فكرة (الحضور). ف (التأجيل) أو الإحالة إذن هو محور اللعب الحر في المنظور التفكيكي، وتزود القارئ بسيل من الاحتمالات، وهذا الأمر يدفع القارئ – حسب رأي "دريدا" – إلى العيش داخل النص، والقيام بجولات مستمرة ليتصيد المعاني الغائبة فيه.[3]

فتبني فكرة (الاختلاف)، يعني تحول بمقتضاه اللغة إلى دوال لا تشير إلى مدلولات بل تشير إلى دوال أخرى، وبالتالي استحالة تثبيت الدلالة، وفتح المجال للانهاية واللاتحديد، وفي اللانهاية واللاتحديد تحرير المتلقي من قيوده، وبتحرير المتلقي انفتاح أفق التأويل، وفي انفتاح التأويل لا نهاية واستحالة الحصر.[4]

---

[1] مادن ساروب، **دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة**. ص: 48.

[2] انظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، **معرفة الآخر**. ص: 119.

[3] انظر: عبد العزيز حمودة، **المرايا المحدبة**. ص: 378.

[4] انظر: هشام الدركاوي، **التفكيكية التأسيس والمراس**. ص: 62.

إن "دريدا" بذلك يوضح ماهية (الاختلاف) و(الإحالة) différance عنده ويؤكد أن النص بذلك قابل لأن يكون له عند التحليل أكثر من معنى وتختلف التفسيرات وتتعدد باختلاف معاني الدوال. أي أنه؛ إذا كان (الاختلاف) عنصر تثبيت الدلالة ف (التأجيل) أو الإحالة عنصر تفكيكها.

وما يمكن استنتاجه والوقوف عليه هنا هو أن (الاختلاف) différance يقوم على استحالة القطع والجزم في الحكم على الأشياء، مادام النص متعدد المعنى والأثر ملتبس الدلالة ومزدوج الإحالة، ولذلك لا وجود لقول فصل أو لكلمة نهائية في موضوع معين أو أمر أو شأن ما مهما كان ذلك، وربما هذا ما جعل "دريدا" « يقف عند بعض الكلمات التي تنطوي على معان متعددة بل ومعان مضادة. إنها كلمات يحكمها الاختلاف ولا تخضع لمنطق الحصر والحد.. إنها كلمات مزدوجة المعاني تحمل في (داخلها) خارجها ».[1]

[1] عبد السلام بنعبد العالي، **أسس الفكر الفلسفي المعاصر**. ص: 81.

4. الأثر Trace[1]

يعد (الأثر) من المقولات التفكيكية الأساسية التي أولاها "دريدا" عناية بالغة، بعد مقولة (الاختلاف)، وذلك نظرا لأهميته في هدم ميتافيزيقا الحضور، حيث يشكل مصدر القوة في الكتابة ومصدر تشكيلها في آن واحد.[2]

(الأثر) هي الترجمة الحرفية لمفهوم Trace. ويدين به "دريدا" إلى الفيلسوف "إمانيال لوفيناس" Levinas. و(الأثر) هو ما يقبل الإمحاء، وهو ما يتنافى والحضور، هو ما يتناقض مع الامتلاء، هو ما يتعارض مع العلامات القارة في تبديها،[3] ويقول "دريدا" في ذلك: « نطلق لفظ الأثر على ما يمتنع عن التحديد في مفهوم الحاضر»؛[4]

---

[1] يذهب "عبد الله الغذامي" أنه يعني سحر البيان في الحديث النبوي الشريف، ويبين ذلك بقوله: «وأهم ما نجده عند دريدا هو مفهوم (الأثر)... و(الأثر) هو القيمة الجمالية التي تجري وراءها كل النصوص ويتصيدها كل قراء الأدب وأحسبه هو (سحر البيان) الذي أشار إليه القول النبوي الشريف ». **الخطيئة والتكفير**. ص: 55. ويذهب البعض إلى أن هذا الفهم للأثر عند "عبد الله الغذامي" فهم سطحي جدا، إذ لا علاقة لهذا المفهوم بما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين سمع شعر حسان بن ثابت فقال: (إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة). فالرسول يتحدث عن التأثير الجمالي الذي يخلفه الشعر في المتلقي، أما الأثر عند "دريدا" فهو أمر آخر.

[2] انظر: عادل عبد الله، **التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل**. (دار الحصاد، دار الكلمة : دمشق – سوريا). ط: 1. 1997م. ص: 96.

[3] انظر: عبد العزيز بن عرفة، **الدال والاستبدال**. ص: 09.

[4] عبد السلام بنعبد العالي، **أسس الفكر الفلسفي المعاصر**. ص: 79. ويضيف "بنعبد العالي" في هذا الموضوع بأن (الأثر) يعني (النسخ) بالمعنى العربي المزدوج لهذه الكلمة فالنسخ هو: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، تبديل الشيء من الشيء وهو غيره. ثم النسخ هو نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو.

بمعنى أن « الأثر في مفهوم جاك دريدا حصرا، هو ما يشير في الآن ذاته إلى إمحاء الشيء وبقائه محفوظا في الباقي من علاماته. إنه بهذا المعنى، المكان أو الشيء الذي يجمع بنفسه ثنائية حركتي رحيل الشيء وبقائه معا. غير أن المهم في مجمل ما يعنيه هذا الكلام، هو انحياز المعنى اللغوي والدلالة لإحدى هاتين الحركتين، وإهمالها تقريبا للحركة الثانية، تحديدا – في مثالنا هذا – انحياز دلالة الأثر واقتراب معناه من (بقايا) الشيء الراحل حسب، مع إهمال غير مقصود (للشيء المحفوظ في الأثر نفسه من ذلك الراحل الغائب الآيل للمحو الكامل) بعبارة أخرى، إن الأثر إذ يدل بانحيازه على إمحاء شيء ما، فإنه ينبغي أن يدل على بقاء جزء من هذا الشيء محفوظا أيضا – جزء من غياب الشيء الراحل مجاور إلى بقائه – فهو ليس إشارة للمحو فقط، بل هو إشارة للمتبقي أيضا، إنه – وينبغي أن يكون هكذا – إشارة للمتبقي الحاضر من الشيء الغائب منه أيضا ».[1]

فالأثر إذا في حركية دائبة من الجلاء والخفاء، ما إن يظهر حتى يختفي من جديد، سيما إذا علمنا طابعه الهجين ودلالته المزدوجة التي تجمع بين الضدين، حيث يشير إلى إمحاء الشيء وبقائه محفوظا في الباقي من علاماته.[2]

وبتعبير آخر، إذا أردنا استوضاح معنى (الأثر) أكثر، فهو عند "دريدا" يشير إلى أن كل عنصر في اللغة لا يتمتع بحد ذاته بقيمة، وإنما يستمد قيمته مما يميزه ويوجهه

ويستشهد على كلامه بما جاء في لسان العرب من أن النسخ هو: الإبطال والإلغاء والإزالة، ثم هو الاحتفاظ والإبقاء. انظر: المرجع نفسه. ص: 81.

[1] عادل عبد الله، **التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل**. ص: 91.

[2] انظر: هشام الدركاوي، **التفكيكية التأسيس والمراس**. ص: 97.

داخل نسق من التعارضات ولما كان كل عنصر يتحدد بعلاقته بالعناصر الأخرى ويشاكله في تكميلها، فيجب أن تكون لعبة الاختلافات هذه التي تؤسسه (مُحَلة) فيه من قبل، وهذا – ببساطة– ما يدعوه "دريدا" بـ (الأثر) Trace.[1]

كما يرتبط مفهوم الأثر لدى "دريدا" بمفاهيم (الاختلاف) و(الكتابة) و(الحضور)؛ ذلك أن الاختلاف لا يمكن التفكير فيه بدون الأثر،[2] لأن الأثر الخالص هو الإرجاء نفسه. والكتابة، وإن كانت ليست الأثر نفسه، فهي تمثيل للأثر بصفة عامة،[3] أما علاقة الأثر بالحضور فهي علاقة تعارض، إذ أن وظيفة مفهوم الأثر هي محو الحضور. من هنا، يحدد "دريدا" الأثر بأنه « كل ما يستعصى على أن يلخص في حدود الحضور وحده».[4]

لكن، وبرغم هذا التحديد، فإن "دريدا" يؤكد أن الأثر، مثله مثل الاختلاف، (لا شيء)، لأنه ببساطة ليس موجودا، ولا يمكن أن يوجد، لأن الوجود يعني الحضور. يقول "دريدا" في ذلك: «والأثر نفسه لا وجود له. فأن توجد معناه أن تكون؛ أي أن تكون موجودا؛ أي موجودا حاضرا ».[5]

---

[1] انظر: جاك دريدا، **الكتابة والاختلاف**. ص: 32، 33.

[2] انظر: جاك دريدا، **في علم الكتابة**.ترجمة: أنور مغيث ومنى طلبة. (المركز القومي للترجمة : القاهرة). ط: 2. 2008م. ص: 140.

[3] جاك دريدا، **في علم الكتابة**. ص: 323.

[4] المرجع نفسه. ص: 154.

[5] المرجع نفسه. ص: 323.

وكما يعارض الأثر الحضور فهو يعارض أيضا مفهوم (الأصل)؛ فالأثر، كما يؤكد "دريدا"«متناقض وغير مقبول في منطق الهوية. إن الأثر لا يعني فقط اختفاء الأصل... فالأصل لم يختف، إذ إنه لم يتكون يوما إلا في مقابل اللا – أصل، أي الأثر، الذي يصبح هنا أصل الأصل».[1] فالأثر في حقيقته – عند "دريدا"– ما هو إلا محاولة تفكيكية لنفي سمة (الأصلية) وما تحمله هذه اللفظة من الأشياء، من دلالة الحضور والبداهة والثبات والتعالي. وهي الدلالة التي جاءت التفكيكية لنسفها وتقويضها وطرح بدائل عنها. وهكذا في نظر التفكيكيين ليس ثمة (أصل) محض، فالأصل لا وجود له، وإنما هناك آثار وآثار فقط لا غير.[2]

وهكذا يتضح كيف أن الأثر يعمل على إلغاء الحضور والأصل ليحل محلهما، وهذا يعني استحالة الوصول إلى الحضور الكامل، كما يعني استحالة الوصول إلى أي معنى، فالمعنى متناقض غير محدد ولا يمكن التوصل إليه.

5. الانتشار أو التشتيت[3] dissémination

الانتشار أو التشتيت هو أحد المصطلحات التي جعل منها "دريدا" أداة تفكيكية، « ويأتي هذا المصطلح لغويا من الانتشار السلالي (من سلالة ونسب)، أو كأن يبذر المرء بذورا أو يشتتها وينثرها »،[4] وبهذا المعنى المعجمي دخلت الكلمة قاموس النقد،

---

[1] المرجع نفسه. ص: 147.

[2] انظر: عادل عبد الله، **التفكيكية إرادة الاختلاف سلطة العقل**. ص: 90.

[3] كانت ترجمت dissémination هو الآخر موضوع اختلاف بين النقاد العرب، فبينما اختار "الرويلي" و"البازعي" ترجمته بـ (الانتشار والتشتيت) اختار "المسيري" ترجمته بـ (تناثر المعنى).

[4] ميجان الرويلي، سعد البازعي، **دليل الناقد الأدبي**. ص: 119.

« لتستقر مصطلحا تفكيكيا مناهضا للامركزية المعنى وأحاديته أو محدوديته ونهائيته، فالبذور المعنوية المزروعة في النص من شأنها أن تنتج مزيدا من الحصاد الدلالي، فيتبعثر المعنى ويتشتت، ويتعدد المركز ويتبدد التأويل، وتتكاثر القراءات ويغدوا النص ذلك الواحد المتعدد ».[1]

وعليه يأتي الانتشار كمصطلح بمعنى تكاثر المعنى وانتشاره بطريقة يصعب ضبطها والتحكم بها، وتشتته داخل النصوص، مثل تناثر البذور وتشتتها وانتشارها في الحقل، إضافة إلى علاقة المصطلح بالتناسل، إذ يوحي بتناسل المعاني داخل النص وانتشارها وصعوبة التحكم بها وحصرها، وبالتالي تصبح العملية ضربا من اللعب الطليق الحر الذي يجعل عملية القراءة تساعد على تناسل المعاني وتكثير الدلالات.[2]

وقد جعل "دريدا"من هذا المصطلح عنوانا لكتاب أصدره سنة 1972م تحت عنوان: dissémination،[3] فهو يربط هذا المصطلح بالتعدد الدلالي للنص، فالمعنى في نظره يتناثر وينتشر بطريقة يصعب ضبطها والتحكم بها، هذا التكاثر ليس بوسع المرء إمساكه وإنما يوحي بنوع من اللعب الحر، فهو حركة مستمرة تبعث المتعة وتثير عدم الاستقرار والثبات.[4] وبمعنى آخر، « يرى دريدا أن الدلالة ليست حاضرة بصفة فورية في العلامة؛ وبما أن دلالة علامة ما تتوقف على ما لا يعنيه فإنها بشكل ما

---

[1] يوسف وغليسي، **إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي المعاصر**. ص: 378.

[2] انظر: هشام الدركاوي، **التفكيكية التأسيس والمراس**. ص: 108.

[3] ترجم "كاضم جهاد" جزء منه متعلقا بـ (صيدلية أفلاطون) عام 1998م.

[4] انظر: ميجان الرويلي، سعد البازعي، **دليل الناقد الأدبي**. ص: 119، 120.

دائما غائبة أيضا من العلامة، أي أن الدلالة منثورة أو مشتتة على طول سلسلة الدوال، ولا نستطيع أن نثبتها بسهولة».[1] ومن ثم يؤدي إلى فيضان المعنى وتفسخه.[2]

إذن، فالانتشار وبسبب غياب مركزية النص والعلاقة اليقينية بين الدال والمدلول يبقى مؤجلا ومرجأ ومتناثرا ومنتشرا.

6. العقار Pharmakon

تنحدر العائلة اللغوية Pharmacie من الكلمة الإغريقية Pharmakon التي تطلق على كل مادة يتم بواسطتها تبديل طبيعة الجسم أو كل مخدر، بل غالبا ما تدل على الدواء أي العلاج.[3]

وقد استوحى "دريدا" الدلالات الإغريقية لهذه الكلمة، موظفا إياها في بحثه: صيدلية أفلاطون La pharmacie de pgaton ضمن كتابهLa issémination، للدلالة على تطور الفعل الكتابي سما وعلاجا في الوقت ذاته. ومن هنا فإنه إذا كان الكلام هو الجوهر والأولي والأصيل في الحضارة الغربية منذ "أفلاطون"، وإذا كانت الكتابة هي (العقار) بمعنى السم، فإن الكتابة لدى "دريدا" تصبح هي الأصل والجوهر، وهي (العقار) لا بالمعنى الذي أراده "أفلاطون" وإنما على الضد من ذلك، بمعنى (الشفاء). وهكذا يقلب "دريدا" المركزية الصوتية من خلال المفردة المتضادة

---

[1] مادن ساروب، **دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة**. ص: 49.

[2] انظر: صلاح فضل، **مناهج النقد المعاصر**. (أفريقيا الشرق : الدار البيضاء – المغرب). دط. 2002م. ص: 110.

[3] انظر: يوسف وغليسي، **إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد**. ص: 375.

العقار أو Pharmakon.[1]

7. القراءة

لقد عمل النقد التقليدي منذ وقت طويل على تقديس (المؤلف)، معتبرا إياه المرجعية الأولى لتحليل النص وسبر أغواره. أما القارئ في النظرة النقدية التقليدية ما هو إلا مشاهد قد أقصي من التجربة النقدية، لكن هذه النظرة التقليدية أخذت تتوارى إلى أن جاءت التفكيكية ونادت بموت المؤلف ودعت إلى ضرورة قراءة النص مفصولا عن كاتبه، وتسليط أضواء البحث والتحليل على النص المكتوب كونه يمثل لغة؛ باعتبار النص نظام إشاري تتكلم فيه اللغة عن نفسها وعن الأشياء خارجها. وبهذا تكون التفكيكية أنهت عصر المؤلف الذي حضي باهتمام النقد التقليدي وتفتح المجال إلى فضاء النص وإشاراته، وإلى خيال القارئ وتصوراته.[2]

تسعى التفكيكية من وراء إعلاء من شأن القارئ في النص إلى تحرير النص من قيد القراءة الأحادية التي تراها أنها مغلقة وقاتلة ومرتبطة بمدلول محدد ونهائي وصريح، وعليه كان لا بد من وضع زمام الأمور في يد القارئ فكل قارئ له قراءته الخاصة به فتتعدد بذلك القراءات لتعدد القراء. ومن هنا كانت المقولة المحورية في التفكيكية هي (كل قراءة إساءة قراءة)، وكل قراءة تفكيك للقراءة السابقة خاصة منها للقراءات التقليدية من قبل. ويعني هذا أن كل قراءة لنص صحيحة إلى أن تفكك القراءة

---

[1] انظر: محمد علي الكردي، « **مفهوم (الكتابة) عند جاك ديريدا، الكتابة والتفكيك** ». مجلة فصول. م:14. عدد: 2. صيف 1995م. ص: 235.

[2] انظر: بشير تاوريريت، **التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر**. ص: 44، 45.

نفسها بنفسها، أو تأتي قراءة أخرى تفككها لتصبح إساءة قراءة، فـ (القارئ) فقط هو الذي يحدث عنده المعنى ويحدثه، ومن دون هذا الدور لا يوجد نص أو لغة أو مؤلف ويؤدي هذا إلى اللعب الحر بالدوال.[1]

فالقراءة التفكيكية lecture déconstructiviste تستهدف (تفجير) éclater النص انطلاقا من مبدأ (اللاتماسك) non-cohérence، وجعله يلعب ضد ذاته، فقد اقترح "دريدا" قراءة النص بما هو إنتاج لمعان غير قابلة للتجميع non-totalisable، ووفقا لهذا التصور فإن العلامة اللغوية تغدو - إذن- موضع تشويش confusion دائم بين المعنى المرجعي référentiel والمعنى المجازي figuré، إنّ القارئ لا يستطيع السيطرة على هذا النص، لأن النص لا يسمح له بذلك.[2]

فـ "دريدا" إذن، يؤكد على أن وجود (نص نهائي) وهم كبير ترسخ في الأذهان عصورا متتابعة، بل إنه لا يوجد (مؤلف نهائي) أو (معنى نهائي) لأي نص مكتوب، ذلك أن العناصر التي يتكون منها النص غير ثابتة الدلالة، بل متحركة دائما، وبهذا يمكن القول أنه ليس هناك نص على الإطلاق، وبالتالي فالمؤلف لا يعد مؤلفا، وإنما مجرد محرك أو مثير للاختلاف حول ما يكتبه، ولا يملك أية سلطة على تحديد معانيه ودلالاته. وهكذا فالخطاب ينتج باستمرار، ولا يتوقف بموت كاتبه، ولهذا نجد "دريدا"

---

[1] انظر: عبد العزيز بن حمودة، **المرايا المحدبة**. ص: 308.

[2] انظر: يوسف وغليسي. **مناهج النقد الأدبي**. ص: 175.

يدعوا إلى الكتابة بدل الكلام لانطوائه على صيرورة البقاء بغياب المنتج الأول، في حين يتعذر ذلك بالنسبة للكلام.[1]

من هذا الأساس نفهم أن القارئ يضع المعنى ويحدده دون اعتبار للمعنى القائم فعلا في النص، ودون اعتبار لما يقصده المؤلف، نظرا لأنه لا يعترف به، ولا يعتبره حاضرا أو موجودا في النص، فهذا الأخير- وفق مبادئ التفكيك - لا يوجد إلا بقارئه، وهذا القارئ يقوم بدور الكاتب في كل قراءة يقوم بها للنص، باعتبار أنه هو الذي يحدث عنده المعنى وهو الذي ينشئه ويحدده، ومن ثم يبدأ نص جديد في الظهور تدريجيا، ولكنه أيضا يختلف على نحو دقيق عن النص الأصلي، وهكذا يستمر التفكيك نحو ما يمكن أن يصبح رجوعا لا نهائيا إلى القراءة الأولى. ف "دريدا" يقوم بإسقاط المؤلف أثناء قراءات النص.

فالتفكيكية إذن، تحاول تقويض النص بأن تبحث داخله عما لم يقله بشكل صريح واضح،[2] وهي تعارض منطق النص الواضح المعلن وادعاءاته الظاهرة، كما أنها تبحث عن النقطة التي يتجاوز فيها النص القوانين والمعايير التي وضعها لنفسه، فهي عملية تعرية للنص، وكشف أو هتك لكل أسراره، وتقطيع لأوصاله وصولا إلى أساسه الذي يستند إليه.[3]

---

[1] انظر: عبد الله إبراهيم، **التفكيك الأصول والمقولات**. ص: 47.

[2] وهو ما يشار إليه الآن في الدراسات العربية ب (المسكوت عنه).

[3] انظر: عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، **الحداثة وما بعد الحداثة**. (دار الفكر : بيروت – دمشق). ط: 1. 2003. ص: 113.

وعليه نجد أنه « كثيرة هذه المبادئ الأخرى المرتبطة بآليات تفكيك النصوص، ولكنها جميعا تلتقي عند فكرة جوهرية هي استحالة التمييز بالمعنى ورصد التناقض في جذر أية بنية والتشكك في إمكانية فهم النصوص بشكل قاطع، إذ تظل عمليات القراءة وإساءاتها هي المولدة للدلالات».[1]

خاتمة

وما يمكن استخلاصه من كل ما سبق، هو أن كل شيء مؤقت في المشروع التفكيكي، فكل التراكيب والبنى في منظورها في حالة مستمرة لا نهائية، إذن فالتفكيكية كمنهج جاءت لتزيل نظرية التمركز والمطلق وتستبدلها بالنسبية والتشظي والتشتت وانعدام اليقين المتمثل في نقد الثوابت وإنكار التقاليد وعدم الثقة بالحقيقة المطلقة، وترجيع كل شيء إلى عدم الثبات... إلخ. وبتعبير آخر أن جوهر التفكيكية كما يراه "جاك دريدا" هو غياب المركز الثابت للنص بمعنى أن التفكيكية تقوم على فلسفة التشكيك في العلاقة بين الدال والمدلول وهذا يعني أن المعنى ليس معطى جاهز أي أنه غير حاضر في الإشارة اللغوية (الدال). وبهذا يمكن اعتبار النقد التفكيكي مقاربة فلسفية أو يمكن اعتباره منهجا في القراءة أو اتجاها من اتجاهات التلقي. فالتفكيكية إذن، تتجه إلى إنكار ثبات المعنى، وتحويل مسار السلطة الدلالية إلى حركة الدال، وتحليل الفجوات والتوقفات والتناقضات والاستطرادات داخل النصوص، بوصفها صياغات تسهم في الكشف عن ما ورائيات اللغة والتراكيب.

---

[1] صلاح فضل، **مناهج النقد المعاصر**. ص: 113.

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها، أن التفكيكية نجحت وبسرعة ملحوظة في تحقيق شعبية غير مسبوقة في تاريخ الحركة النقدية خاصة الأمريكية منها. وبهذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية بمثابة الأم التي احتضنت وتبنت التفكيكية، ونالت شعبية ملحوظة في الأوساط النقدية والأكاديمية، فازدهرت التفكيكية فيها كما لم تزدهر في موطنها الأصلي، وتبناها نقاد عديدين أبرزهم "بول دي مان" الذي أصدر كتابين مهمين كتاب: العمى والبصيرة سنة 1971م. وكتاب: مرموز القراءة سنة 1979م. و"هارولد بلوم" الذي أصدر كتابا بعنوان: خارطة القراءة الخاطئة سنة 1975م، و"جيوفري هارتمان" في كتابه: منقد في القفاز سنة 1980م، وغيرهم.